لقد انتهينا إلى أن النحو كسائر المعارف الأخرى لا بد له أن يكون، وأن يشارك في التراث العلمي القديم. وهذا يفضي بنا إلى أن نعرض للنحاة على تراخي العصور، والقدر الذي ساهم به كل منهم في بناء هذا الصرح الشامخ، وما منهج كل منهم في هذا الدرس اللغوي. إن هذا ليفضي بنا إلى أن نعرض لما يدعى الخلاف النحوي وكيف كان، وهو مادة هذا العمل الذي أبغي فيه أن يكون الدارسون على بينة مما يقال في «المدارس النحوية».

أقول: لم يطلق القدماء على «مسائل الخلاف» في النحو القديم كلمة «مدرسة»، فلم يؤثر عنهم مصطلح «المدرسة البصرية» ولا مصطلح «المدرسة الكوفية» ولا «مدرسة بغداد» ولكننا كنا نقرأ من قولهم: مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب البغداديين، وربما ورد في قولهم: مذهب الأخفش ومذهب الفراء ومذهب سيبويه وغير ذلك.

غير أن المعاصرين استحسنوا لفظ «المدرسة» فاستعاروها في مادة الخلاف النحوي كما استعاروها في مسائل أدبية أخرى. وكأنهم استعاروها من الغربيين فقد أشار الأستاذ الدكتور طه حسين في درسه الأدبي إلى ما دعاه «مدرسة أوس بن حجر»، ولا يعرف الدارسون مدى صدق هذه المقولة، وكيف تكون القصيدة عند أوس بن حجر بناءً خاصاً يختلف عما كان لسائر الجاهليين؟ وقد استمرأ هذا النهج في إطلاق «المدرسة» الأساتذة العقاد والمازني وشكري فكانت «مدرسة الديوان»، كما أطلقها آخرون على الأدب في المهجر على الخلاف الكبير بين أدباء المهجر في منازعهم الفكرية.

ولعل من هذا ما ذهب إليه الباحثون في عصرنا في تاريخ النحو والنحاة فأثبتوا مصطلح «المدرسة» في نحو البصريين، ومثله «مدرسة» الكوفة، و«مدرسة» بغداد، ثم كان لهم أن قالوا: «مدرسة» المصريين، و«المدرسة» الإفريقية، و«مدرسة» الأندلسيين. غير أنك حين تنظر في التراث النحوي وهو مادة البحث، لا تجد أن جمهرة النحاة بصريين وكوفيين وغيرهم قد اختلفوا في أصول هذا العلم، ولم ينطلق هؤلاء من أفكار متعارضة، ولكنهم قد